الفنون العربية الإسلامية

المرحلة الثالثة إسلامي

التحف المعدنية في مدينة الموصل

م.م علي احسان عبد علي

أولاً :الموصل

من المعروف أن صنّاع التحف المعدنية هاجروا من الموصل إلى مصر وبلاد الشام فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وقد اشتغل هؤلاء الفنانين عند الأمراء والسلاطين الأيوبيين فى دمشق وحلب والقاهرة وطبيعى انهم نقلوا الأساليب الفنية التى ألفوها فى بلاد الجزيرة ولذا كانت آثارهم الفنية تتبع مدرسة الموصل ومن الصعب تمييز منتجاتها عن سائر التحف المصنوعة فى بلاد الجزيرة إلا إذا كانت على التحفة كتابة تسجيلية تشير إلى مكان صنعها[١] . أما الموصل[٢] فهى ذات تاريخ يمتد إلى الأشوريين حيث اتخذ الأشوريون مدينة نينوى عاصمة لهم (١٠٨٠ق. م.) وحصنوها فأقاموا حولها القلاع ومنها القلعة التى كانت فى الجهة الغربية من دجلة تقابل مدينة نينوى . وتقع هذه القلعة فوق تل قليعات الذى يشرف على السهول الغربية المقابلة لمدينة نينوى كما يشرف على السهول التى بين نينوى والموصل[٣] .

وقد كانت هذه القلعة أو الحصن النواة لمدينة الموصل حتى جاء فتح الموصل سنة (١٦ هـ / ٦٣٧م)، وكانت الموصل وقت الفتح الإسلامى تشتمل على

---

(١) راجع : زكى حسن ، فنون الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ص ٥٤٢ .

(٢) الموصل : تقع على جانبى نهر دجلة وتقابل مدينة «نينوى» عاصمة الأشوريين، وتمتاز بجمال موقعها واعتدال مناخها ،وكثرة خيراتها وفصل الخريف فيها يشبه الربيع لذا سميت أم الربيعين . وقد سميت كذلك بأسماء مختلفة فكان يقال لها فى ايام الفرس «نوارد شير » او «بواردشير » ،وسماها النصارى القدماء الذين كانوا يقطنونها قبل الفتح «حصن عبرايا » اى « الحصن العبوري» ولما فتحها العرب وزادوا فى توسيعها سموها « الموصل » وهو الاسم الشائع ، كما لقبت « الموصل » بـ « الحدباء» نظرا لاحتداب فى دجلتها واعوجاج فى جريانها أو نسبة لقلعتها الحدباء .راجع : ياقوت الحموى ، معجم البلدان، مج٨، بيروت ، ١٩٥٩ م ، ص ١٩٦ .، كوركيس عواد ، مدينة الموصل ، بغداد ، ١٩٥٩م ، ص٨-٩، سعيد الديوه جى ، الموصل أم الربيعين ، مطبعة الهدف ، الموصل ، ١٩٦٤م ،ص ٣ ـ ٩ .

(٣) سعيد الديوه جى ، الموصل فى العهد الأتابكى ، بغداد ، ١٩٥٨ م ، ص ٤ ـ ١٤ .

ثلاثة أحياء : حى المجوس وهم الفرس الذين سكنوا الموصل ، وحى النصارى وهو يقع فى الجهة الشمالية من الحصن ،أما اليهود فكانوا يسكنون المحلة المحمدية وهى المحلة التى كانوا يسكنونها قبل أن يهاجروا إلى فلسطين . ولقد انقضى عهد الخلفاء الراشدين والموصل فى توسع حتى صارت من أمهات الجزيرة. وقد اهتم الامويون بالموصل كثيرا نظرا لأهميتها الحربية والتجارية فكانوا يولون عليها أقدر الولاة وأحزمهم وكثيرا ما كانوا يولون عليها ممن ثبت عندهم حبه للإصلاح والعمران . وعلى الرغم من انه قد ساءت حالة الموصل فى العصر العباسى الاول إلا انه فى العصر العباسى الثانى أخذت المدينة تستعيد مركزها الاقتصادى والعمرانى حتى انتزع السلاجقة البلاد وزادت الاضطربات والحروب بين امرائهم على الحكم ولاقت المدينة ويلات كثيرة ومصائب فتأخرت التجارة وقلت المزروعات وهجر قسم كبير من سكان الموصل مدينتهم وهكذا تقلصت عما كانت عليه حتى استولى الخراب على أكثر أحيائها[1].

ثم كان آل زنكى[2] نعمة أنعم الله بها على أهل تلك العصور حيث تقدمت الصنائع فى الموصل وصارت المصنوعات الموصلية تصدر إلى الهند شرقا وإلى

(١) سعيد الديوه جى ، الموصل ، ص ١٤٤

(٢) المعروف ان الموصل دخلت تحت سيطرة السلاجقة فى سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م ،وقد ازدهرت على ايديهم الفنون والصناعات المختلفة ،وكانت ازهى عصورهم ايام حكم اسرة أتابك زنكى السلجوقية بين سنتى ٥١٦ هـ / ١١٢٢ ـ ١٢٢٣م . وقد عرفت هذه الاسرة بتعضيدها للفنون والصناعات لاسيما صناعة التحف المعدنية التى تجلت فيها مهارتهم فى اشكال التحف وزخارفها ،كما ظهر لهذه الدولة رقيب قوى وخصم كثير الطموح ،وهو صلاح الدين الايوبى فكان كلما قويت شوكة الايوبيين تتقلص دولة الاتابكيين حتى انحصر ملكهم بالموصل ،وكان أول من حكم من هذه الاسرة هو : قسيم الدولة آق سنقر الحاجب (أبو سعيد) آق سنقر بن عبدالله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب والد عماد الدين مملوكا للسلطان العادل آلب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، فربى مع ولده السلطان العادل جلال الدولة ملكشاة ،وبقى فى صحبته الى ان أفضت اليه السلطنة ، فجعله من أعيان امرائه وأخص أوليائه واعتمد عليه فى مهماته ،وصار صاحبا للسلطان ،وزاد قدره عنده الى ان صار يتقيه مثل نظام الملك الوزير مع تحكمه على السلطنة وتمكنه من المملكة .والدليل على علو مرتبته تلقبه قسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذ مصونة لا تعطى الا لمستحقيها وكان يقف على يمين السلطان . ثم حكم بعده « عماد الدين زنكى » وكان اخر حكام آل زنكى هو : نور الدين ارسلان شاه بن القاهر عز الدين مسعود (٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م). راجع : الراوندى ، راحة الصدور .، ص ١٤٦ .، ياقوت الحموى ، معجم ،ج ٨ ، ص ١٩٦ .، ابن الاثير ، الكامل ،ج ٢ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ، ج ٦ ، ص ٥٠ـ٥٥ .

أوربا غربا ،ومن هذه الصنائع صناعة التكفيت فى المعادن فقد نبغ فى الموصل كثير من الفنانين الذين كانت تحفهم مثالا لفنانى الشرق يعكفون على درسها وتقليدها وكان إقبال أهل الموصل شديد على هذه الصناعة[1].

وفى أواخر القرن السادس للهجرة هاجر من مصر إلى الموصل كثير من الصنّاع واهل الحرف ، وذلك على أثر المجاعة التى حصلت فيها سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م . فنشروا فنونهم وصنائعهم فيها ، وكانوا عاملا جديدا فى تنشيط الصناعة والفنون كما هاجر بعض الصنّاع والبنائين من نصارى تكريت ونشروا فيها صناعة تزيين المبانى بزخارف وصور جصية والحفر على الخشب فكانوا عاملا اخر فى تقدم فن البناء وزخرفته.

وأيضا من الصنائع التى تفوقت فيها الموصل فى العهد الأتابكى هى صناعة التحف المعدنية وتكفيتها بالذهب والفضة، وتعتبر صناعة التحف المعدنية فى الموصل من الصناعات القديمة التى كانت معروفة فى هذه الديار ،ونشطت فى الموصل فى القرنين السادس والسابع للهجرة الثانى عشر والثالث عشر للميلاد حيث كان الصنّاع المواصلة قد جمعوا بين ما ورثوه من العناصر المحلية القديمة فى الزخرفة والنقش وما تأثروا به من الصناعات المجاورة لها ،وابتكروا عناصر جديدة فى الزخرفة والنقوش وتنويع التكفيت فكان الطابع الموصلى هو الغالب عليها[2].

وصناعة التحف المعدنية فى الموصل تأثرت بما كان يصنع فى ايران وأرمينية كما تأثرت بالصناعات المحلية التى كانت معروفة فى هذه البلاد قبل الإسلام وبعده ولكن بفضل صنّاع الموصل على هذه الصناعة حيث انهم لم يكونوا مقلدين فحسب بل طبعوها بطابع خاص، وتفننوا فى تنويعها وتهذيبها حتى صارت مدرسة الموصل قبلة مدارس العالم فى هذه الصناعة وكانت مصنوعاتها

---

(١) عن العلاقات الثقافية والفنية التى سادت بين مصر والعراق منذ القدم وحتى العصور الوسطى. راجع: حسين امين ، تبادل التأثيرات الحضارية بين مصر والعراق ، مجلة كلية الآثار ، الكتاب الذهبى ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١١٣

(٢) سعيد الديوه جى ، الموصل ..، ص ٥٠ ـ ٥٢ .

من التحف المعدنية الثمينة التى يتسابق الملوك والأمراء وأرباب الثروة فى اقتنائها، وتزيين دورهم وموائد طعامهم وشرابهم بها ، وظلت الموصل متولية زمام هذه الصناعة مدة القرنين السادس والسابع للهجرة / الثانى عشر والثالث عشر حتى دهمتها المصائب والغزوات فمزقت شمل أهلها حتى هاجر الفنانون والصناع إلى كثير من البلاد ونشروا معهم هذه الصناعة النفيسة. كما أن طريقة التكفيت بالذهب والفضة كانت مخصصة بمدينة الموصل ، أى أنها مما أبدعته قريحة الفنان الموصلى حيث فاقت مدرسة الموصل غيرها فى هذه الطريقة وتفننت فى إخراج اجمل الأوانى، وصار ما يصنع فى هذه المدرسة مثالا تحتذيه بقية المدارس التى اقتفت أثرها وأخذت عنها، وفى متاحف الشرق والغرب تحف معدنية تعد من اجمل التحف التى صنعت فى القرون الوسطى وعليها أسماء صانعيها المبدعين من أهل الموصل. وهكذا كانت هذه الصناعة فى تقدم طورا وطورا فى ركود، حتى أوائل القرن السادس للهجرة حيث تفوقت مدينة الموصل فيها ،وصار لها مدرسة خاصة بإنتاجها كما اشتهرت المدرسة الموصلية فى العالم حتى نسب إليها كل ما يصنع من تحف البرونز والنحاس الأصفر المكفتة بالفضة والذهب والنحاس الأحمر[1].

وقد وصل إلينا عدد من التحف المعدنية يحمل من الكتابات التاريخية ما يسجل أنه صنع على يد فنانين من الموصل استقروا فى مختلف العواصم الإسلامية وظلوا مخلصين للأساليب الفنية التى ازدهرت بمدينتهم الأولى[2].

---

(١) أهم المميزات الفنية لمدينة الموصل الزخرفة ذات الرسوم الادمية التى تقوم فى كثير من التحف التى صنعت فيها على أرضية من خطوط منكسرة ومتداخل بعضها فى بعض تؤلف شكل حرف (T) المزدوج ، كما ان هذه السمة ظهرت على التحف المعدنية التى صنعت للسلاطين الايوبيين، ومن الرسوم التى انفردت بها التحف المعدنية الموصلية دون غيرها هى رسم الهلال بين ذراعى شخص جالس على نحو ما نرى على بعض قطع العملة التى ضربها بنو زنكى فى الموصل. راجع : زكى حسن ، فنون الإسلام ، ص ٥٤٢، صلاح حسين العبيدى ، التحف المعدنية الموصلية فى العصر العباسى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٠، ص ٦٦ .

(٢) راجع : زكى حسن ، فنون الإسلام ، ٥٤٤ .

والواقع أن هناك عوامل أساسية جعلت مدينة الموصل تنتج التحف المعدنية بكثرة منها ما يلى :-

١- توافر المواد الأولية اللازمة لتلك الصناعة فقد كان النحاس هو المادة الأساسية لها وكانت الموصل على ما يبدو تحصل على تلك المادة من الجزر الأخرى التى يكثر فيها النحاس .

٢- تشجيع رجال الدولة لهذه الصناعة والقائمين عليها باقتنائهم ما يصنع من تحف معدنية مختلفة ،ومنها ما كان فى المدارس ،والمساجد من أدوات، ومنها ما كان يستعمل فى المنازل والقصور .

٣- مهارة الصانع الموصلى وقدرته الفنية التى كانت سبب فى تقدم صناعة التحف المعدنية فى مدينة الموصل وإبراز طابعها الخاص وتميزحضارتها[١] .

وبذلك ظلت مدينة الموصل فى طليعة المدن المنتجة للتحف المعدنية المكفتة خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ومن مدينة الموصل انتقلت تلك الصناعة إلى مدن أخرى مثل دمشق والقاهرة على أيدى من هاجر من صناعها إلى المدن المذكورة . حيث واصلوا جهودهم ونشاطهم فى الأماكن التى استقروا فيها ونجد الأدلة الكافية لهذه الهجرات فى عدد من التحف المعدنية المصنوعة فى دمشق ،والقاهرة حيث قامت الصناعة فى أوائل الأمر على أكتاف صنّاع الموصل ،وكان من الطبيعى أن ينقل هؤلاء الصنّاع معهم الأساليب التى ألفوها فى بلادهم ، لذلك كانت آثارهم الفنية لا تختلف فى معظم الأحيان عما

(١) وقد بقيت هذه الصناعة مزدهرة فى الموصل مدة قرنين ولكن الصدمات التى لاقتها هذه البلاد من التتر والمغول شتت شمل الصناع فتفرقوا فى البلاد ، وقد تسربت هذه الصناعة من الموصل الى البلاد المجاورة فهاجر قسم من الصناع الى ايران ،ونشروا صناعتهم فيها، كما هاجر قسم كبير منهم الى سوريا ومنها الى مصر واليمن حيث لاقى الصناع المواصلة اقبالا حسنا فى سوريا ومصر فنشروا صناعتهم فيها . وفى الواقع ان مصانع مدينة الموصل ظلت طوال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى تنتج ابدع آيات الفن فى صناعة التكفيت وان غزو المغول لم يقضى على هذه الصناعة لان الاتابكة بادروا بالخضوع لهم ، ولكن هذا الغزو مضافا اليه بعض الأسباب الأخرى شجع كثيرا من صناع التحف المعدنية فى الموصل على الهجرة الى بغداد ودمشق وحلب والقاهرة فضلا عن بعض المراكز الفنية فى ايران وآسيا الصغرى.
راجع : سعيد الديوه جى ، الموصل . ، ص ٥١ - ٥٢ .

كان ينتج فى تلك المدينة بحيث أصبحنا نجد صعوبة فى معظم الأحيان فى تمييز التحف المعدنية المصنوعة فى مدينة الموصل عن تلك التى صنعت فى مدن أخرى إلا إذا كان ما يشير إلى مكان صناعتها[١].

على أن مدينة الموصل قدر لها أن تصبح أعظم مركز لصناعة التحف المعدنية المكفتة بالذهب والفضة فى القرنين السادس والسابع بعد الهجرة / الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وامتازت منتجاتها بدقة الزخارف المكفتة باستخدام الذهب فى التكفيت ، مما أكسب تلك التحف جمالا وإبداعا عظيمين وقد كان لمدرسة الموصل أكبر الأثر فى تطور صناعة المعادن فى سائر الأقطار الإسلامية حيث رحل منها صنّاع كثيرون إلى القاهرة وحلب وبغداد ،ودمشق ،وأسسوا مدارس جديدة لصناعة التحف المعدنية وتكفيتها بالفضة والذهب فى أسلوب فنى يظهر فيه التأثر بأساليب مدرسة الموصل فى هذا الميدان[٢].